أمّهات اشراف المسلمين النصرانيّات

ووالدة الامير خالد القسري الرومية

اشتهر الاشراف في الجاهلية والاسلام بحب التسرّي والتزوّج بالاماء والفتيات الاجنبيّات. وقد علّل ذلك عمر بن الخطاب بقوله «ليس قوم اكيس من اولاد السراري. لانهم يجمعون عزّ العرب ودهاء العجم.»[1] ولكن العرب كانوا يعدّون مثل هذا الزواج حطّة في النسب. ويسمّون من كان ابوه شريفاً وامه أَمَة «هجيناً». قال المبرّد: وانما قيل هجين من اجل البياض. فكأنهم قصدوا قصد الروم والصقالبة ومن اشبههم[2]. يريد بياض الاماء من هذين الجيلين.

وكان يقال للأَمة ايضاً فتاة، وامّ ولد[3]. وليس ادلّ على كثرة الهجناء والفتيات في الاسلام من حكاية النكتة التي اوردها المبرّد قال:

«يروى عن رجل من قريش لم يُسمَّ لنا قال: كنت اطالب سعيد بن المسيب. فقال لي يوماً: مَن اخوالك؟ فقلت: امي فتاة. فكأنني نقصت في عينه. فامهلت حتى دخل عليه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطّاب. فلما خرج من عنده، قلت: يا عمّ من هذا؟ فقال: يا سبحان الله أتجهل مثل هذا من قومك. هذا سالم بن عبدالله بن عمر. قلت: فمن امه؟ قال: فتاة. قال ثم اتاه القاسم بن محمد بن ابي بكر الصدّيق، رحمه الله. فجلس عنده ثم نهض. فقلت: يا عم من هذا؟. فقال: أتجهل من هذا مثله! ما اعجب هذا! هذا القاسم بن محمد بن ابي بكر الصدّيق. قلت: فمن امه؟ قال:

---

١) الكامل للمبرّد (مطبعة التقدم) ١: ٣٥٤-٣٥٥

٢) روى الحسن بن محبوب علي بن رئاب عن زرارة عن ابي جعفر، عليه السلام، قال: سألته عن ام الولد. قال: أمة تباع وتورث وتوهب. وحدّها حدّ الامة. (كتاب من لا يحضره الفقيه لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي. رقم ١٧٠٣، ص ٣٤٠، من الخزانة الملوكية).

فتاة . فامهلت شيئاً حتى جاء علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ، رضي الله عنه . فسلّم عليه . ثم نهض . فقلت : يا عم مَن هذا؟ قال: هذا الذي لا يسع مسلماً ان يجهله . هذا علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب . فقلت : فمن امه ؟ قال : فتاة . قلت : يا عم ، رأيتني نقصت في عينك لما علمتَ اني لأمّ ولد . افما لي في هؤلاء اسوة ! قال فجللت في عينه جدًّا.[1]

وكان معظم الخلفاء العباسيين ابناء اماء. واتهات اولاد. وهذا وحده كافٍ للدلالة على شدّة تفشّي التسرّي في الاسلام . ولذلك انشد الرياشي :

ان اولاد السراري كثروا ، يا ربّ ، فينا
ربِّ ، أدخلني بلادًا لا ارى فيها هجينا[2]

وكانت الفتيات الروميات من احبّ النساء الى المسلمين لما اتّسمْنَ به في الغالب من الصباحة ، والحذق في الخدمة ، وعمل اليدين. وكان بعضهنّ يتمسكن بنصرانيتهنّ اشد التمسك حتى في قصور الخلافة . ويأبين متابعة ازواجهن في اعتقاد الاسلام. ومن اولاد الخلفاء والامراء والاشراف ، الذين اشتهروا بامهاتهنّ المسيحيّات ، مسلمة بن عبد الملك ، فيما حكاه ابن عساكر في ترجمته. والعباس بن الوليد بن عبد الملك[3] . وعبد الله بن الوليد بن عبد الملك . ويزيد بن اسيد . وعبدة بن عبد الرحمن السلمي. وابو الاعور السلمي . وحنظلة بن صفوان الكلبي احد قوّاد الخليفة هشام الاموي . وكانت امه لا تكتم دينها ولا جالها . قيل خرجت مرة من الكنيسة ومعها جواريها . ومرت بابنها حنظلة ، ومعه اعراب له من كلب . فقال اعرابي منهم : ان عجلتكم هذه لصبيحة . اما لهذه من فتيانكم احد ؟ فقال له حنظلة : أجبل يرحمك الله. فانها ام بعض جلسائك[4].

وفي ضدّ ذلك كانت ام الحارث بن عبدالله بن ابي ربيعة تُسرّ نصرانيتها من ابنها . وكانت سوداء حبشية في الارجح . وهو ما يؤخذ من قول الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد ذُكر الحارث يوماً بين يديه ، بعد ان ولّاه عبد الله

١) الكامل للمبرد ١ : ٢٥٢
٢) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي. بريتش موزيوم Add. 23277, f° 105
٣) الاعلاق النفيسة لابن رسته ، ص ٢١٣.

ابن الزبير . وكان الحارث شريفاً كريماً ديناً سيداً من سادات قريش يقال له القُباع . وهو اخو الشاعر المشهور عمر بن ابي ربيعة . « فقال عبد الملك : ارسل عوفاً وقعد . لاحرّ بوادي عوف . فقال له يحيى بن الحكم : ومن الحارث ابن السوداء ؟ فقال له عبد الملك : ما ولدت ، والله ، أَمَة خيراً ما ولدت امه . »

« ولما ماتت حضر الاشراف جنازتها . وذلك في عهد عمر بن الخطاب . فسمع الحارث من النساء لغطاً . فسأل عن الخبر . فعُرّف انها ماتت نصرانية . وانه وُجد الصليب في عنقها . وكانت تكتمه ذلك . فخرج الى الناس فقال : انصرفوا رحمكم الله . فان لها اهل دين هم اولى بها منا ومنكم . فاستُحسن ذلك منه . وعجب الناس من فعله . »[1]

ولا يخفى ما في مثل هذا القول والفعل من الدلالة على سماحة خلق الحارث وشرفه وبرّه بوالدته . وهو شاهد ايضاً على قلة العداء للنصرانية في زمانه ، خلافاً لما تمثله لنا بعض التواريخ الاسلامية من عصر الخلفاء الراشدين .

واشهر من عُرف بامه النصرانية ، وشتم بولادته منها ، الامير خالد بن عبدالله القسري ، عامل العراق للامويين . ولما وليّه صارفاً عنه ابن هبيرة وحبسه في سجن واسط ، قال الفرزدق معرّضاً بخالد . وكان حاقداً عليه لحرمانه اياه :

لقد حبس النصريُّ في سجن واسط فتى شيظمياً ما ينهنهه الزجرُ
فتى لم تلده حرة ، ولم يكن غذاه له لحمُ المتازير والخمرُ[2]

ومن المضحكات الغريب ان يعيّر مثل الفرزدق احداً بشرب الخمر ، وهو ، كما سيجيء من قوله في خالد فيه : « خبيث من التقوى بطين من الخمر » .

وقد انكر بعض الرواة والمؤرخين على الامير خالد انه لم يأمر والدته بالاسلام . وكان مَن اراد تقريعه من الخلفاء والاعداء يقول له : « يا ابن النصرانية ، ويا ابن النكفرة » . ولما هم عمر بن عبد العزيز بقلع الفسيفساء والرخام من الجامع الاموي وجعل الطين والحصى مكانها خرج اليه اهل دمشق . وهو بدير

١) الاغاني (طبعة الدار) ١ : ٦٦-٦٧
٢) الكامل للمبرد ٣ : ٨٨-٨٩

سمان . وقالوا له : يا امير المؤمنين بلغنا انك تريد ان تصنع كذا وكذا . فقال : نعم . فقال له خالد القسري وكان معهم : ليس لك ذلك ، يا امير المؤمنين . قال : ولِمَ ؟ يا ابن الكافرة . فقال : يا امير المؤمنين ان كانت نصرانية فقد ولدت رجلاً مؤمناً . فاستحيا عمر وقال : صدقت[1] . وفي رسالة لهشام بن عبد الملك الى خالد ينكر عليه استعانته بالمجوس والنصارى في ولايته للعراق : « نزع بك الى ذلك عرق سوء فيهم من التي قامت عنك »[2] . واقبح من عيّره بها مسلمة ابن عبد الملك . وهو ، فيما قيل ، ابن نصرانية ايضاً . وكان ما بينه وبين خالد متباعداً جداً لاسباب لم تذكر . ولما مات اسد شقيق خالد عن امارة خراسان واعمالها ، نيابةً عن اخيه ، كتب مسلمة الى خالد شامتاً به ابياتاً شتم فيها والده اقبح شتم ، وتناول فيها والدته بقوله :

وانّى منها وبنتها مِنَ الاماء الدواعر الشُرُد
كافرة بالنبي ، مؤمنة بفسها ، والصليب ، والصَمَد[3]

يريد بالصمد المعبودية . وهذا الخطاب غريب من امير تأدّب بآداب الخلافة . وكان خالد يقول : يا عباد الله ، من رأى مثل هذه التعزية ؟

وقد تضافرت الروايات الاسلامية والنسطورية على ان ام خالد كانت رومية الجنس . ولكن اختُلف في مصيرها الى ابيه . فقيل انه رآها في يوم عيد للروم . ولا شك أعجب بجمالها ، فاستلبها ، واولدها خالداً وشقيقه اسداً[4] . وهو الارجح . وقيل ان الخليفة عبد الملك وهبها لابيه[5] . وكانت حسنة الصورة زرقاء العينين . تغزل بها احد الشعراء فقال مدافعاً عن نصرانيّتها وزرقة عينيها :

يقولون : نصرانيةٌ امّ خالد ، ففلت : دعوها ، كل نفس ودينها .
فان تك نصرانيةً ام خالد ، فقد صُوّرت في صورة لا تشينها ،
احبكِ ان قالوا بعينك زرقة كذاك عتاق الطير زرق عيونها .[6]

١) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي ، باريس رقم ١٥٨٧
٢) الكامل للمبرّد ٢ : ٢٩٨
٣) عيون التواريخ للكتبي . باريس رقم ١٥٨٧ ، ص ١٦٦
٤) الكامل للمبرد ٢ : ٢٩٨
٥) الاغاني ١٩ : ٦٠
٦) عيون الاخبار لابن قتيبة ٤ : ٥٨

ومع ذلك فقد زعم سبط ابن الجوزي انها كانت سوداء قبيحة المنظر .[1] وبمثل هذا الزور والاختلاق والبعد عن كل انصاف وانتقاد كان يُدوَّن التاريخ في الشرق .

ويظهر انها مـا لبثت ان تأدّبت بآداب العرب . ولقنت لغتهم وفصاحتهم حتى طاع لها نظم الشعر ايضاً . وهو ما يُستنتج من رواية لابن عبد ربه قال فيها : «لما اخذ داود بن طلحة خالداً ، فضربه ، بامر سليمان بن عبد الملك ، مئة سوط . قال الفرزدق وقد أُولع بهجائه مشيراً الى شفاعة يزيد بن المهلب فيه :

لعمري ! لقد صُبَّت على متن خالد ... شآبيب لم يُصبَبْنَ من صيّب القطر !
فلولا يزيد بن المهلّب ، حلّقت ... بكفيك فتخاء الجناح الى الوكر .

فردّت عليه ام خالد تقول :

لعمري ! لقـد باع الفرزدق عِرضه ... بخسف ، وملى وجهـه حامي الحجر .
فكيف يساوي خـالداً ، ويثينه ... خميرٌ من التقوى ، بطينٌ من المسر !![1]

واذا صحّت هذه الرواية — ولا شيء ينفيها — تكون ام خالد قد جمعت الى حلية الجسم حلى العقل والعلم . وقد وضع خالد مع لبانها كرم الاعراق ، وسهولة الخلق ، والبعد عن كل تعصّب ديني . ولذلك كان محسناً الى اهل الذمّة يعرف لهم اقدارهم ، ويقلّد من يصلح منهم الاعمال الديوانية . وهو ما انكره عليه هشام بن عبد الملك ، حسبما تقدم من لفظه في رسالته المشار اليها آنفاً . وقد شهد مازي بن سليمان ، احد كتاب النـاطرة ، ان خالداً «كان يقصد الجاثليق كثيراً ويكرمه . وكان فثيون (جاثليق النـاطرة) اذا دخل اليه الكوفـة يجلسه على كرسي ويخلع عليه . ويطلب الحنان ويسأله الدعاء . وواقفه على شيء يسير يؤدّيه عن الخراج بالمدائن . وكتب له كتاباً وتقدم الى طـارق خليفته بصيانته .»[2] وكان هذا الاحسان احد ذنوب خالد التي احتجّ بها اعداؤه حتى غيّروا رأي هشام بن عبد الملك فيه . ومن اجله ايضاً اتهمه ابو الفرج الاصبهاني بانه كان زنديقاً يولي النصارى والمجوس على المسلمين ، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم .

---

١) العقد الفريد ٢ : ٢٧٦

٢) كتاب المجدل . اخبار فطار بن كرمي المشرق (طبعة رومية) ، ص٦٦

ويطلق لهم اقتناء الجواري المسلمات[1] . وجمع في مثالبه والازراء عليه اقبح الاقاويل ، وادّعى انه كان في صباه مخنثاً قوّاداً . وان جدّته كانت أمة بغيًا . ونفاه عن قبيلة قسر ، وزعم ان جده كان عبدًا آبقاً من هجر . او كان اصله من يهود تيما.[2] . ومما اهاجه عليه احتقار خالد لعلي بن طالب وبغضه له ، كشأن كل الشاميين من رجال بني امية . وحكى عن سبط ابن الجوزي — وهو كثير المجازفة قليل التثبت فيما يرويه — ان خالدًا بنى بجامع الكوفة قوّارة للماء . ثم دعا بقس من قسوس النصارى وقال له : ادعُ لها بالبركة . فان دعاءك ارجى من دعاء ابي تراب[3] يعني علي بن ابي طالب . وكان صاحب الاغاني ، خلافاً لاهل بيته الامويين ، مغالياً في حب الشيعة . ولذلك لم يتمالك بعد ان نقل بعض قوارص خالد في حق علي ان يقول : « اللهم العن خالدًا وأخزه . وجدّد على روحه العذاب »[4] .

ومع كل ما سُبّ به خالد بانتقاص امه — ولا تعدم الحسناء ذاماً — لم يفتر عن برّها والمبالغة في اكرامها . ويظهر انه لم يكن في زمانها كنيسة للروم الملكيين في الكوفة . وكان يشقّ عليها ان تشهد صلوات الناطرة واليعاقبة . فسألت ابنها ان يبني لها بيعة خاصة بمذهبها البيزنطي . فلبّى دعوتها واقام لها البيعة المنسوبة اليه ، وبنى حولها حوانيت بالآجر والجصّ . وهُدمت ، بعد قتله ، وصار في مكانها سكة البريد[5] . قال ابن الاثير : ولما بلغه ان الناس يذمونه لبنائه البيعة لامه . قام يعتذر اليهم ، فقال : لعن الله دينهم ان كان شرًّا من دينكم .[6]

وزاد ابو الفرج مبالغة في الذمّ والتشنيع ان خالدًا بنى الكنيسة « في ظهر

١) الاغاني ١٩ : ٥٦

٢) الاغاني ١٩ : ٥٦–٥٨ و٦٣–٦٤

٣) مرآة الزمان . بريتش موزيوم Add. 23277, f° 213b

٤) الاغاني ١٩ : ٦٠

٥) معجم البلدان لياقوت ١ : ٧١٦ ؛ وفتوح البلدان للبلاذري ، ص ٢٨٦ ؛ وكتاب البلدان لابن الفقيه ، ص ١٨٢

٦) الكامل ٥ : ١١٢

قبلة المسجد الجامع بالكوفة . فكان اذا اراد المؤذّن في المسجد ان يؤذن ضرب لها بالناقوس . واذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى اصواتهم بقراءتهم»[1] . ولا حاجة الى تزييف هذه التهم . لان النصارى، وهم ذمة تحت رحمة المسلمين ، كانوا اعقل من ان يتعدوا طورهم ويتعرضوا للتلف والهلاك . واعجز من ان يتحرّشوا بالمصلّين والخطباء . وقد نسبوا الى الفرزدق ابياتاً في هذا المعنى قالها في هجاء خالد وهي :

ألا قطع الرحمن ظهر مطيّة ... انتنا غادى من دمشق بخالد !
وكيف يؤمّ المسلمين ، وأمّه ... تدين بان الله ليس بواحد ؟
بنى بيعة فيها النصارى لأمّه ، ... ويهدم من كفر منار المساجد

وقال ايضاً يخاطب الخليفة :

عليك ، امير المؤمنين ، بخالد ... واصحابه ، لا طهّر الله خالدا !
بنى بيعة فيها الصليب لأمّه ، ... ويهدم من بغض الصلاة المساجدا (٢

ولا شكّ ان البيت الثالث من الابيات الاولى موضوع محرّف عن البيت الثاني من بيتي الخليفة ، كما يظهر بادنى تأمل . وذكروا في تفسيره ان رجلاً من موالي الانصار قال :

ليتني في المؤذّنين ، حياتي ! ... أنهم يبصرون مَن في الطرح
فيشيرون ، او تشير اليهم ، ... بالهوى ، ذات دلّ مليح

قالوا : فلما سمع خالد هذا الشعر امر بهدم منارة المسجد ، وحطّها عن دور الناس . وقد اغفل صاحب الاغاني البيت الذي ورد فيه ذكر المنار . ونسب بيتي المؤذّن الى السري بن عبد الرحمن الانصاري ، وانه قالها في المدينة . وكان عاملها يومئذ صالح بن العباس بن محمد قال : فامر بسدّ المنار فلم يقدر احد ان يطلع رأسه حتى عُزل صالح .[2] وهذه الرواية اوثق واصحّ لصدورها عن عامل المدينة نفسه كما جاء في الاغاني . فليس لخالد اذن يد في هدم المنار . وقصتها دليل على تحامل بعض الرواة والمؤرخين على الامير القسري ؛ فيجب ان تُنتقد

١) الاغاني ١٩ : ٥٩
٢) الكامل للمبرد ٢ : ٨٨–٨٦
٣) الاغاني ١٨ : ٦٧

كل اخباره بغاية النزاهة والتمحيص .

ومن الفكاهات انّ تطلّع المؤذنين من اعلى المنـائر الى مَن في المنازل والسطوح قد وقع ايضاً في الغرب . وقد نبّه اليه احد مؤلفي كتب الحِسبة . وزعم ان محتسباً في الكوفة لم يترك مؤذناً يؤذن في منار الا معصوب العينين. ولا شكّ ان هذا الخبر مبني على البيتين السابقين من رواية المبرّد. قال ابو عبدالله محمد السقطي المالقي الاندلسي :

« ولقد كنت اقول منذ رأيت هذه الحكاية ليت شعري لِمَ فعل هذا - حتى حكى لي جماعة من الثقاة انهم شاهدوا بمراكش قضيّة عجيبة . وذلك ان احد الرؤساء امر ليلة من الليالي حشمه وخدمه ان يتظاهروا لديه بصحن داره في السلاح التام . ليرى ما يعجبه منهم . وبين يديه شمع زاهر واضواء كثيرة . وجعلوا يحمل بعضهم على بعض يظهرون لسيدهم ما احكموه مما طلبهم له . فبصر بهم مؤذن من منار مسجد كان يطلع على الدار . فصاح باللسان الغربي « غُدرتم يا مسلمين . ودُخلت دار فلان . » فتسابق الناس الى الدار ووقعت من ذلك في البلد رجّة عظيمة . وغشي الصياح في الناس . وكانت هيئة كبيرة كان سببها اطلاع المؤذن . . . كما اتفق للرجل الدهان الذي رأيته بغرناطة . وحُدّثت عنه انه كان مؤذناً ايام فتآنه باحدى البنيّات . وكان يشرف من موضع اذانه على دار فيها جارية حسناء اعجبه جمالها . ولما علمت بشأنه لم تزل تلوّح له وتشير اليه وتسأله حتى شغف بها . فعرضت له يوماً وهو في اثناء الاذان وشغله حتى زاد ونقص . وسمعه الناس وجعلوا اليه وشاع امره فاضطرته الحال الى ان فرّ عن ذلك الموضع واستوطن غيره . وتوبته وما جرى بينه وبين جارته معروفة . »[1]

ولا ندري متى توفيت [illegible] بعد قتله سنة ١٢٦ (٧٤٣/٤ م) . ولعلها سبقته الى اللحد منذ سُجن وحزن عليه .

---

١) آداب الحسبة : طبعة باريس سنة ١٩٣١ ، ص ٧-٨.